أبو الأسود الدؤلي

و دوره في وضع قواعد النحو

[١] بقلم : الشيخ أحمد علي
المحدث بالمدرسة الحكيمية العالية ، شوناتي ، لوهاغارا
شيتاغونغ ، بنغلاديش

هو أبو الأسود ظالم بن عمرو بن سفيان (١) بن جندل (٢) بن يعمر بن حلس (٣) بن نباتة (٤) بن عدي بن الدئل (٥) الدؤلي (٦) الكناني (٧) البصري(٨) ، هذا قول الأكثر في اسمه ، و قال دعبل وعمر بن شبة : هو عمرو ابن ظالم بن سفيان ، وقال الواقدي : عويمر بن ظويلم ، وقيل : عمرو بن عمران، وقيل : عثمان بن عمرو (٩) ، وقيل : عمرو بن عثمان (١٠) ، إنما هذا الاختلاف في اسمه لأجل أنه كان مشهوراً بكنيته "أبي الأسود" أكثر من اسمه ، وكانت أمه من بني عبد الدار بن قصي من قريش (١١) .

ولد أبو الأسود قبل النبوة ببضع سنين ، وقيل : قبيل الهجرة (١٢) في بني الديل – ونشأ وشب بينهم – كان له جار من بني حلس بن يعمر ، من رهطه دنيةً ، يحسده وتبلغه عنه قوارص ، روى عن أبي بكر الهذلي أنه قال : إن جاره أولع برميه بالحجارة كلما أمسى فيؤذيه فشكا أبو الأسود ذلك إلى قومه وغيرهم فكلموه ولاموه فكان ما اعتذر به إليهم أن قال : لست أرميه وإنما يرميه اللّه لقطعه الرحم وسرعته إلى الظلم في بخله لماله ، فقال أبو الأسود : واللّه ما أجاور رجلاً يقطع رحمي ويكذب على ربي فباع داره واشترى داراً في هذيل (١٣) ، ثم انتقل إليها وكان يقيم فيها إلى أن هاجر إلى البصرة .

كان أبو الأسود من سادات التابعين وأعيانهم وليس له صحبة فإنه أسلم في حياة النبي ﷺ ، ولكنه لم يره (١٤) روى عن أبي عبيدة : "أنه أدرك أول الإسلام و شهد بدراً مع المسلمين" (١٥) يدل هذا الخبر على أنه صحابي رأى

النبي ﷺ في حال إسلامه ، لكنه لم يثبت لأنه لم يرو ذلك غيره ، لعله وهم ، وأغلب الظن أنه كان مع المشركين فإن أصحاب السير ذكروا أن أباه قتل كافراً في بعض المشاهد التي قاتل فيها رسول اللّه المشركين (١٦) ، وذكره ابن شاهين أيضاً في الصحابة ، وروى بإسناده عن القاسم بن يزيد ، عن سفيان عن بكير بن عطاء الليثي ، عن أبي الأسود الديلي ، قال : أتيت رسول اللّه ﷺ وهو واقف بعرفة ، فأتاه نفر من أهل نجد ، فقالوا : يا رسول اللّه ! كيف الحج ؟ فأمر رجلاً فنادى : "الحج يوم عرفة ، من جاء قبل صلاة الصبح ليلة جمع فقد تمّ حجّه" ، هكذا أورده – وهو خطأ – رواه شعبة عن بكير عن عبد الرحمن بن يعمر الديلي ، ورواه غير واحد عن سفيان كذلك وهو الصواب ، ولا مدخل لأبي الأسود فيه ، وروى عن عبد الرزاق عن ابن جريج عن عبد اللّه بن عثمان بن خيثم أن محمد بن خلف ، أخبره : "أن أبا الأسود أتى النبي ﷺ وهو يبايع الناس يوم الفتح" وهذا أيضاً خطأ ، رواه أبو عاصم عن ابن جريج عن ابن خيثم عن محمد بن الأسود بن خلف : "إن أباه الأسود حضر النبي ﷺ وهو يبايع" فسقط على الراوي "الهاء" في الكتابة من "أباه" فجعله أبا الأسود (١٧) .

كان أبو الأسود من أجلة العلماء في عصره ، كان قد جمع بين علم القراءة والحديث والفقه والنحو كما كان جمع بين شدة العقل وصواب الرأى وجودة اللسان ، وقول الشعر والظرف .

أخذ أبو الأسود القراءة عن عثمان وعلي رضي اللّه عنهما وعنه أخذه ولده أبو حرب ونصر بن عاصم الليثي ويحيى بن يعمر العدواني وعبد الرحمن بن هرمز وعنبسة الفيل وميمون الأقرن ، وقيل : حمران بن أعين ، لكن الصحيح فيه إنما أخذه عن أبي حرب بن أبي الأسود (١٨) .

وأخذ الحديث عن عمر وعلي ومعاذ وأبي ذر وابن مسعود والزبير بن العوام وأبي بن كعب وأبي موسى الأشعري وعمران بن حصين وعبد اللّه بن عباس وغيرهم ، وروى عنه ابنه أبو حرب ويحيى بن يعمر وعبد اللّه بن أبي بريدة وعمر بن عبد اللّه مولى عفيرة ، و سعيد بن عبد الرحمن بن رقيش وقتادة

وغيرهم (١٩) ، كان مسنداً في الحديث من أهل طبقته ، ثقة صدوقاً عدولاً ، روى عنه جميع أصحاب الصحاح الستة ، و ثقه ابن معين وأحمد العجلي وابن سعد وابن حبان وغيرهم (٢٠) .

قدم أبو الأسود إلى البصرة في خلافة عمر وسكنها وتولّى المكانة العلياء بها في الحديث والفقه وكان عيّنه عبد اللّه بن عباس كاتباً حين استعمله عليها علي ﷺ (٢١) وكان يكرمه ويقضي حوائجه فلما ذهب ابن عباس إلى الحجاز ، استخلفه عليها فاقرّه علي (٢٢) ، روى عن المدائني أنه قال : لما خرج ابن عباس إلى المدينة من البصرة تبعه أبو الأسود في قومه ليرده فاعتصم عبد اللّه بأخواله من بني هلال فمنعوه وكادت تكون بينهم حرب فقال لهم بنو هلال : ننشدكم اللّه ألا تسفكوا بيننا دماء تبقى معها العداوة إلى آخر الأبد ، وأمير المؤمنين أولى بابن عمه فلا تدخلوا أنفسكم بينهما فرجعت كنانة عنه ، وكتب أبو الأسود إلى علي فأخبره بما جرى فولاه إمارة البصرة (٢٣) ولم يزل في إمارتها إلى أن قتل علي ﷺ .

كان أبو الأسود من أشياع علي وأكثر الناس تعلقاً به وبأهل بيته ، قاتل معه يوم الجمل وشهد معه صفين ، ثم تولى له حرب الخوارج (٢٤) وتفجع له إذ أتاه نعيه وجزع جزعاً عظيماً ، روى عن أبي بكر الهذلي ، قال : أتى أبا الأسود الدؤلي نعي أمير المؤمنين علي و بيعة الحسن ، فقام على المنبر فخطب الناس ونعي لهم علياً فقال في خطبته :

"وإن رجلاً من أعداء اللّه المارقة عن دينه ، اغتال أمير المؤمنين علياً كرّم اللّه وجهه ومثواه ، في مسجده وهو خارج لتهجده في ليلة يرجي فيها مصادفة ليلة القدر فقتله ، فيا لله هو من قتيل ! وأكرم به وبمقتله وروحه من روح عرجت إلى اللّه تعالى بالبر والتقى والإيمان والإحسان ! لقد أطفأ منه نور اللّه في أرضه لا يبين بعده أبداً وهدم ركناً من أركان اللّه لا يشاد مثله ، فإنا للّه وإنا إليه راجعون ، وعند اللّه نحتسب مصيبتنا بأمير المؤمنين ﷺ ورحمة اللّه يوم ولد ، ويوم قتل ويوم يبعث حيًا" .

"ثم بكى حتى اختلفت أضلاعه ، ثم قال : وقد أوصى بالإمامة بعده إلى ابن رسول الله ﷺ وابنه وسليله وشبيهه في خلقه وهديه وإني لأرجو أن يجبر الله تعالى به ما وهى ويسد به ما انثلم ويجمع به الشمل ويطفئ به نيران الفتنة فبايعوه ترشدوا" .

فبايعت الشيعة كلها وتوقف ناس ممن كانوا يرون رأى العثمانية ولم يظهروا أنفسهم بذلك وهربوا إلى معاوية ، فكتب إليه معاوية ودس إليه رسولا يعلمه أن الحسن ؓ قد راسله في الصلح ويدعوه إلى أخذ البيعة له بالبصرة ، ويعده ويمنيه ، فقال أبو الأسود :

ألا أبلغ معاوية بن حرب ☆ فلا قرت عيون الشامتينا
أ في شهر الصيام فجعتمونا ☆ بخير الناس طرّاً أجمعينا
قتلتم خير من ركب المطايا ☆ و خيسها و من ركب السفينا
ومن لبس النعال ومن حذاها ☆ و من قرأ المثاني و المئينا
إذا استقبلت وجه أبي حسين ☆ رأيت الدر راق الناظرينا
لقد علمت قريش حيث حلت ☆ بأنك خيرها حسباً و ديناً (٢٥)

ثم لمّا تم الأمر لمعاوية صالحه و وفد عليه فبالغ في إكرامه وأعظم جائزته ولكن لم يكن مطمئناً إلى الحكم الأموي ، فعاش على تقية لم يمدح الأمويين ولم يعرض بهم (٢٦) فصنع الأمويون به مثل ما صنع بهم . فكانوا لا يعتمدون أذاه ولكنهم كانوا يضايقونه (٢٧) روى أن عبد الله بن عامر عامل البصرة من قبل معاوية جفاه وأبعده ومنعه حوائجه ، وكذلك زياد لما تولى العراق كان أبو الأسود يأتيه فيسأله حوائجه فربما قضاها وربما منعها لما يعلمه من رأيه وهواه في علي فكان أبو الأسود يترضاه ويداريه ما استطاع ، ويقول في ذلك :

رأيت زياداً صدّ عني وجهه ☆ ولم يك مردوداً من الخير سائله
ينفذ حاجات الرجال و حاجتي ☆ كداء الجوى في جونه لا يزايله
فلا أنا ناس ما نسيت فآيسٌ ☆ و لا أنا راء ما رأيت ففاعله
و في اليأس حزم للّبيب و راحة ☆ من الأمر لا ينسى ولا المرء نائله (٢٨)

كان له شعر حسن وجواب حاضر وحكم وأمثال ، أما شعره خاصة فضعيف في الأكثر إذ ليس على مستوى رفيع من الوجهة الفنية كما أنه لا يقدم غنماً تاريخياً جديراً بالذكر في أحوال عصره (٢٩) فإن أكثر شعره في مناسبات تتعلق بحاجاته اليومية ، و له شئ من الرثاء و الغزل و الهجاء و المدح و الحكمة و في الشيب خاصة .

المختار من شعره وكلامه :

كانت لأبي الأسود امرأة من بني قشير وامرأة من عبد القيس فأسن وضعف عما يطيقه الشباب من أمر النساء ، فأما القشيرية فكانت أقدمهما عنده وأسنهما وكانت موافقة له صابرة عليه وهي أم عوف القشيرية التي يقول فيها :

أبى القلب إلا أم عوف وحبها ☆ عجوزاً ومن يحبب عجوزاً يفنّد
كسحق يمان قد تقادم عهده ☆ و رقعته ما شئت في العين واليد

وأما الأخرى التي من عبد القيس فهي فاطمة بنت دعمي ، وكانت أشبهما وأجملهما فالتوت عليه لما أسنّ ، وتنكرت له وساءت عشرتها ، فقال فيها أبو الأسود :

أ فاطم مهلا بعض هذا التعبس ☆ وإن كان منك الجد فالصّرم مؤنسي
تشتّم لي لما رأتني أحبها ☆ كذى نعمة لم يبدها غير أبؤس
فإن تنقضي العهد الذي كان بيننا ☆ و تلوى به في ودّك المتحلس
فإني – فلا يغررك مني تجملي ☆ لأسلى البعاد بالبعاد المكنس (٣٠)

كان لأبي الأسود ابن عم دنية وكان شرسا سيئ الخلق ، فأراد سد ذلك الباب فقال قومه : لا تفعل فتضر بأبي الأسود وهو شيخ وليس عليك في هذا الباب ضرر ولا مؤنة – فأبى إلا سدّه – ثم ندم على ذلك لأنه أضر به ، فكان إذا أراد سلوك الطريق التي كان يسلكها منه بعد عليه ، فعزم على فتحه وبلغ ذلك أبا الأسود فمنعه منه ، وقال فيه :

بليت بصاحب إن أدن شبراً ☆ يزدني في مباعدة ذراعاً
وإن أمدد له في الوصل ذرعي ☆ يزدني فوق قبس الذرع باعاً

أبت نفسي لـــــه إلا اتباعـا ☆ و تأبى نفسه إلا امتنــــاعا

كلانا جاهـــــد أدنو و ينـأى ☆ فذلك ما استطعت وما استطاعا (٣١)

وقال في هجائه أيضاً :

لنـــا جيرة سدوا المجازة بيننا ☆ فإن أذكــــروك السد فالسد أكيس

ومن خير ما الصقت بالجار حائط ☆ تزلّ بــه سُفع الخطاطيف أملس (٣٢)

دخل أبو الأسود يوماً على عبيد اللّه بـن أبـي بكرة نفيع بـن الحـارث بـن كلدة، فرأى عليه جبة رثّة كان يكثر لبسها ، فقال : يا أبـا الأسود ! أمـا تمـل هذه الجبة ؟ فقال : رب مملول لا يستطاع فراقه ، فلما خرج من عنده بعث إليه مائة ثوب ، فكان أبو الأسود يمدحه ، ويقول فيه :

كساني ولم استكسه فحمدتـــه ☆ أخ لك يعطيك الجزيل و ناصـــر

وإن أحق الناس إن كنت شاكراً ☆ بشكرك من أعطاك والعرض وافر (٣٣)

ذكر السيوطي وغيره : إن تلك القضيـة جـرت لأبـي الأسـود مـع المنـذر بـن الجارود العبدي (٣٤) .

و وعده معاوية ﷺ وعداً بطأ عليه فقال :

لا يكن بـــــرقك برقاً خلباً ☆ إن خير البرق مـا الغيث معه

لا تهني بعد إكرامك لـــــي ☆ فشديد عادة منتزعــــــــة (٣٥)

من محاسن حكمه في شعره :

قال يوصي ابنه :

لا تـرسلن رسالة مشهــــورة ☆ لا تستطيع إذا مضت إدراكهـــا

أكرم صديق أبيك حيث لقيتــه ☆ وأحبُ الكرامة من بدا فحباكها

لا تبدينَ نميمة حُدِّثتهـــــا ☆ و تحفظنَ من الذي أنباكهــــا (٣٦)

وقال أيضاً يخاطب ولده :

و مـــا طلب المعيشة بالتمني ☆ و لكن ألق دلوك في الـــــدلاء

تجئ بملئها طــــوراً و طوراً ☆ تجئ بحمأة و قليل مـــــــاء (٣٧)

وقـــال :

مـــا كل ذي لب بمؤتيك نصحه ☆ و مـــا كل مؤت نصحه بلبيب
ولكن إذا ما استجمعا عند واحد ☆ فحق له من طاعـــــة بنصيب (٣٨)

من عجائب أجوبته ولطائف أقواله :

روى أنه ذكرت العمامة عند أبي الأسود الدؤلي فقال : "جُنَّة في الحرب ومسكنة من الحر ومدفأة من القرّ و وقار في الندى و واقية من الأحداث وزيادة في القامة ، وهي بعدُ عادة من عادات العرب" (٣٩) ، وروى أن رجلاً سأل أبا الأسود الدؤلي فردّه فالحّ عليه ، فقال له أبو الأسود : "ليس السائل الملحف خيراً من المانع الحابس" فصار مثلاً (٤٠) ، وروى أنه قيل : "أبو الأسود أظرف الناس لو لا بخل فيه" فقال : "لا خير في ظرف لا يمسك ما فيه" (٤١) ، وروى عن الرياشي أنه قال : دخل أبو الأسود الدؤلي على عبيد الله بن زياد وقد أسن ، فقال له عبيد الله يهزأ به : "يا أبا الأسود ! إنك لجميل فلو تعلقت تميمة ترد عنك بعض العيون ، فقال أبو الأسود :

أفنى الشباب الذي أفنيت جدته ☆ كرّ الجديدين من آت و منطلـــق
لم يتركا لي في طول اختلافهمـا ☆ شيئاً أخاف عليه لذعة الحـــدق (٤٢)

وكان لأبي الأسود في بني الديل دار وكان له جار يتأذى منه في كل وقت ، كما سبق ذكره فيما قبل ، فباع الدار فقيل له : أبعت دارك ! فقال : لم أبع داري ولكن بعت جاري ، فأرسلها مثلاً (٤٣) ، وعن عيسى بن عمر قال : سئل أبو الأسود عن رجل ، و استشير في أن يولى ولاية ، فقال أبو الأسود : هو ما علمته : "أهيس أليس ، الدُّ مِلْحس ، إن أعطى انتهر وإن سئل آزر" (٤٤) .

و يبدو أن أبا الأسود كان في شعره من نصراء آل البيت أيضاً ، لكن لم يكن يجسر على هجو معاوية كما فعل أكثر أمثاله ، و لم يرو له طعن في بني أمية (٤٥) ، روى أنه كان ينزل البصرة في بني قشير ، و كانت بنو قشير عثمانية ، و كانت امرأته أم عوف منهم فكانوا يؤذونه ويسبونه وينالون من علي ؓ بحضرته ليغيظوه به ويرمونه بالليل لمحبته علياً ؓ ، وأهل بيته فإذا

أصبح قال لهم : يا بني قشير ، أي جوار هذا ! فيقولون لـه . لم نرمك ، إنما رماك الله لسوء مذهبك وقبح دينك ، فقال في ذلك :

أحب محمـــــداً حباً شديداً ☆ و عباساً و حمــزة و الوصيا
أحبهــم لحب الله حتـــى ☆ أجئ إذا بُعِثْتُ علـى هــويا
هوىً أعطيته منــذ استدارت ☆ رحى الإسلام لم يعـدل سويا
يقول الارذلون بنـــو قشير ☆ طوال الدهر مــا تنسى علياً
بنو عم النبي ﷺ وأقـــربـوه ☆ أحب النـــاس كلهم إليـــا
فإن يك حبهم رشداً أصبـــه ☆ و ليس بمخطـــئ إن كان غيّاً (٤٦)

فقالت له بنو قشير : شككت يا أبا الأسود في صاحبك حيث تقول : فإن يك حبهم رشداً أصبه ، فقال : أما سمعتم قول اللّـه تعالى : ﴿ وإنّـا و إيـاكم لعلى هدىً أو في ضلال مبين ﴾ افترى اللّه تعالى في نبيه ! وقد روى أن معاوية . قـال هذه المقالة فأجابه بهذا الجواب (٤٧) .

وقد جمع شعره في ديوان صغير يوجد مخطوطاً في ليـبزج أوّل/٥٠٥ ,Noldeke) (2DMG,18,220-42 ، دامـاد زاده ١٧٦٩ ، ١٧٨٩/٢ (M,FO,6531) (٤٨) . وطبـع في بغداد سنة ١٩٥٤م وعلق عليه عبد الكريم الدجيلي ، ثم طبعتـه دار المعارف في الكاظمية ما بين ١٩٥٣م و ١٩٥٥م تحت تحرير محمد حسين آل ياسـين (٤٩) . وله قصيدة في برلين ٧٥١٩/٣ ، وشرح ميمية له محمـود الشـريف في التعليقات الشريفية على جملـة مـن القصـائد الحكميـة ، نشـر بالقـاهرة/١٣١٠ . انظر : (O.Rescher,WZKM 27 (1913) 375FF., MSOS-XXI,32) . ونشرت ترجمة لقصـائده سـنة ١٩١٤م في "Griefswald" (٥٠) .

كان أبو الأسود طاهر الأخـلاق ، حسـن المجالسـة ، كـامل المـروءة ، وكـان موسرا ذا عبيد وإماء فقيل له : قد أغناك اللّه تعالى عن السعي في حاجتك . فلـو جلست في بيتك ، فقال : لا ولكنني أخرج وأدخل ، فيقول الخـادم : قد جـاء ، ويقول الصبي : قد جاء ، ولو جلست في البيت فبالت عليّ الشاة ما منعهـا أحـد عني (٥١) ، ربما نسب إليه من بخل ، كان يقول : "أ أطعمنا المساكين في أموالنـا

لكنا مثلهم" (٥٢) ، ويقول لبنيه : "لا تجاوروا الله فإنه أجود وأنجد ولو شاء أن يوسع على الناس كلهم حتى لا يكون محتاج لفعل فلا تجهدوا أنفسكم في التوسع فتهلكوا هزالاً" (٥٣) ، روى المدائني أنه قال : خرج أبو الأسود الدؤلي ومعه جماعة أصحاب له إلى الصيد فجاءه أعرابي فقال له : السلام عليك ، فقال له أبو الأسود : كلمة مقولة ، قال : أدخل ؟ قال : وراءك أوسع لك ، قال : إن الرمضاء قد أحرقت رجلي ، قال : بل عليها أو إئت الجبل يفئ عليك ، قال : هل عندك شئ تطعمنيه ؟ قال : نأكل ونطعم العيال ، فإن فضل شئ فأنت أحق به من الكلب . فقال الأعرابي : ما رأيت قط ألأم منك ، قال أبو الأسود : بلى ، قد رأيت ولكنك قد أنسيت (٥٤) ، وروى أيضاً أنه عشى ليلة مسكيناً ثم قيده وبيته عنده ومنعه أن يخرج ليلته تلك لئلا يؤذى المسلمين بسؤاله ، فقال له المسكين : أطلقني ، فقال : هيهات ، إنما عشّيتك لأريح منك المسلمين الليلة فلما أصبح أطلقه (٥٥) .

أما أوصافه الجسمية فقد كان أصلع الرأس ويعد من العرجان والمفاليج (٥٦) ولم يكن يعتني بنظافة فمه حتى بخر ، روى أنه سار معاوية ﷺ يوماً بشئ فاصغى إليه ممسكاً بكمّه على أنفه ، فنحى أبو الأسود يده عن أنفه ، وقال : لا والله لا تسود حتى تصبر على سرار المشايخ البخر (٥٧) .

توفي أبو الأسود فيما ذكر يحيى بن معين وابن أبي خيثمة والمرزباني وغيرهم بالطاعون الجارف (٥٨) سنة ٦٩هـ/٦٨٨م ، و له خمس و ثمانون سنة (٥٩) ، و هذا هو الصحيح ، و قيل : إنه مات قبل الطاعون بعلة الفالج (٦٠) . قال المدائني : هذا أشبه لأنه لا ذكر له في فتنة مسعود ، وأمر المختار الثقفي (٦١) ، وقال ابن خلكان : و قيل : إنه توفي في خلافة عمر بن عبد العزيز ﷺ (٩٩-١٠٢هـ/٧١٧-٧٢٠م) (٦٢) ، هذا غريب جداً ، لعله أخطأ من قال ، و روى أنه قيل له عند الموت : أبشر بالمغفرة ، فقال : "وأين الحياء مما كانت له المغفرة" (٦٣) .

[للبحث صلة]

>>>

(١) قيل : جده "ظالم" أيضاً (الذهبي ، شمس الدين محمد ، سير أعلام النبلاء ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٩٠م : ج/٤ ، ص/٨٤) .

(٢) ذكر ابن قتيبة في نسبه "جندل بن سفيان" موضع "سفيان بن جندل" خلافا لسائر المصادر (ابن قتيبة الدينوري ، عبد اللّه بن مسلم ، الشعر والشعراء ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، مصر ١٩٦٦م : ج/٢ ، ص/٧٢٩) .

(٣) حِلس : بكسر الحاء المهملة وسكون اللام وبعدها سين مهملة ، هكذا ذكره أبو القاسم المغربي في كتاب " الإيناس" وهو مما يحرف كثيراً ، فقد وجد فيه اختلاف ، وهذا هو الأصح (ابن خلكان ، شمس الدين أحمد ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٤٨م : ج/٢ ، ص/٢١٩)

(٤) ذكر ابن خلكان وغيره "نفاثة" موضع "نباتة" (ابن خلكان ، المصدر السابق : ج/٢ ، ص/٢١٦) .

(٥) الدولابي ، أبو بشر محمد بن أحمد ، كتاب الكني والأسماء دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٣م : ص/١٠٧ .

(٦) الدؤلي (بالضم بعدها همزة مفتوحة) : منسوب إلى الدئل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، الدُئِل على فُعِل اسم دابة بين ابن عرس والثعلب سمي الرجل بها ، قال سيبويه : ليس في لغة العرب اسم على وزن فُعِل غيره وأنشد :

جاءوا بجيش لو قيس معرسه ☆ ما كان إلا كمعرس من الدئل

قال يونس : الدُّوَل (بضم الدال وسكون الواو) : امرأة من كنانة وهم رهط أبي الأسود ، وقال ابن قتيبة : الدُّول في بني حنيفة ، و الدِّيل في بني عبد القيس ، والدئل بالهمزة في كنانة منهم أبو الأسود الدئلي ، وقال عيسى بن عمر بالكسر على الأصل ، وكان جماعة يقولونه : "الدِّيلي" (بكسر المهملة وسكون التحتانية) ، وقال محمد بن سلام الجمحي أبو الأسود الدُّئلي (بضم الدال وكسر الهمزة) ، وقال المبرد : بضم الدال وفتح الهمزة من الدُّئِل بالكسر ، وهي دابة ، امتنعوا من الكسر لئلا يوالوا بين الكسرات ، كما قيل في النمر النَّمَري ، يتضح مما سبق من أقوال العلماء أنه يجوز في أبي الأسود : الدُّوَلي والدِّيلي والدُّؤلي والدُّئِلي (ابن حزم الأندلسي ، أبو محمد علي ، جمهرة أنساب العرب ، دار الكتب

العلمية بيروت ١٩٨٣م : ص/١٨٥ ، السمعاني ، أبو سعيد عبد الكريم ، كتاب الأنساب ، دائرة المعارف العثمانية حيدرآباد : ج/٥ ، ص/٤٠٥-٤٠٨) .

(٧) الكناني : منسوب إلى كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار وهم إخوة قريش لأن قريشاً مختلف في الموضع الذي افترقت فيه مع أبيها ، فخصت بهذا الاسم دونهم ، وأبعد من قال في ذلك مدى من زعم أن النضر بن كنانة منتهى نسب قريش ، فأما النسابون منهم ، فيقولون : إن من لم يلده فهر بن مالك بن النضر فليس قرشياً (الأصفهاني أبو الفرج علي بن الحسين ، كتاب الأغاني : ج/١٢ ، ص/٣٤٦) .

(٨) البصري : منسوب إلى البصرة وهي مدينة عظيمة بالعراق ، نسب إليها أبو الأسود لما أنه كان قدم إليها وسكنها وتولى إمارتها في أيام علي ﷺ .

(٩) ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين أبو الفضل أحمد ، الإصابة في تمييز الصحابة ، دار الكتب العلمية بيروت : ج/٣ ، ص/٣٠٤ .

(١٠) ابن حجر العسقلاني : كتاب تهذيب التهذيب ، نشر دار السنة ، أردو بازار لاهور : ج/١٢ ، ص/١٢ . (١١) الذهبي : المصدر السابق : ج/٤ ، ص/٨٥ .

(١٢) عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي ، دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٤م : ج/١ ، ص/٣٤٨ . (١٣) الأصفهاني : المصدر السابق : ج/١٢ ، ص/٣٦٩ .

(١٤) ابن كثير : أبو الفداء الحافظ : البداية والنهاية ، دار الفكر بيروت (د-ت) : ج/٨، ص/٣١٢ . (١٥) الأصفهاني : المصدر السابق : ج/١٢ ، ص/٣٤٦ .

(١٦) ابن حجر العسقلاني : الإصابة : ج/٣ ، ص/٣٠٤ .

(١٧) ابن الأثير الجزري ، أبو الحسن عزّ الدين علي بن محمد : أسد الغابة في معرفة الصحابة ، تحقيق : محمد ابراهيم البنا وأصحابه (د-ت) : ج/٣ ، ص/١٠٣ .

(١٨) الذهبي : المصدر السابق : ج/٤ ، ص/٨٢ .

(١٩) ابن حجر : الإصابة : ج/٣ ، ص/٣٠٤ .

(٢٠) ابن حجر : كتاب تهذيب التهذيب : ج/١٢ ، ص/١٢-١٣ ، ابن كثير : المصدر السابق : ج/٨ ، ص/٣١٢ . (٢١) الأصفهاني : المصدر السابق : ج/١٢ ، ص/٣٥١ .

(٢٢) الزركلي ، خير الدين : الأعلام ، دار العلم للملايين بيروت (د-ت) : ج/٣ ، ص/٢٣٦ .

(٢٣) الأصفهاني : المصدر السابق : ج/١٢ ، ص/٣٥٠ .

(٢٤) عمر فروخ : المصدر السابق : ج/١ ، ص/٣٤٨ .

(٢٥) الأصفهاني : المصدر السابق : ج/١٢ ، ص/٣٨٠-٣٨١ .

(٢٦) عمر فروخ : المصدر السابق : ج/١ ، ص/٣٤٨ .

(٢٧) زيدان ، جرجي : تاريخ آداب اللغة العربية ، دار مكتبة الحياة بيروت : ج/١ ، ص/٢٤٤ .

(٢٨) الأصفهاني : المصدر السابق : ج/١٢ ، ص/٣٦٢-٣٦٣ .

(٢٩) بروكلمان ، كارل : تاريخ الأدب العربي ، ترجمة : د/عبد الحليم النجار ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٣م : ج/١ ، ص/١٧٢ .

(٣٠) الأصفهاني : المصدر السابق : ج/١٢ ، ص/٣٧٨-٣٧٩ .

(٣١) أيضاً : ج/١٢ ، ص/٣٧١ .

(٣٢) الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر : البيان والتبيين ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٧٥م : ج/٢ ، ص/٣٥٥ .

(٣٣) ابن خلكان : المصدر السابق : ج/٢ ، ص/٢١٧ .

(٣٤-٣٥) السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة . تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم ، المكتبة العصرية بيروت : ج/٢ ، ص/٢٣ .

(٣٦) الأصفهاني : المصدر السابق : ج/١٢ ، ص/٣٨٣ .

(٣٧) السيوطي : المصدر السابق : ج/٢ ، ص/٢٣ .

(٣٨) العسقلاني : الإصابة : ج/٣ ، ص/٣٠٥ .

(٣٩) الجاحظ : المصدر السابق : ج/٣ ، ص/١٠٠ .

(٤٠-٤١) العسقلاني : الإصابة : ج/٣ ، ص/٣٠٥ .

(٤٢) المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد : الكامل ، دار نهضة مصر ، الفجالة القاهرة (د-ت) : ج/٢ ، ص/١٧١ .

(٤٣) الأصفهاني : المصدر السابق : ج/١٢ ، ص/٣٦٩ .

(٤٤) الأصفهاني : المصدر السابق : ج/١٢ ، ص/٣٨٤ .

(٤٥) زيدان : المصدر السابق : ج/١ ، ص/٢٤٥ .

(٤٦) المبرد : المصدر السابق : ج/٣ ، ص/٢٠٥ .

(٤٧) الأصفهاني : المصدر السابق : ج/١٢ ، ص/٣٧٢ .

(٤٨) بروكلمان : المصدر السابق : ج/١ ، ص/١٧٢ .

(٤٩) عمر فروخ : المصدر السابق : ج/١ ، ص/٣٠٥ .

(٥٠) بروكلمان : المصدر السابق : ج/١ ، ص/١٧٢ .

(٥١) ابن خلكان : المصدر السابق : ج/٢ ، ص/٢١٨ .

(٥٢) ابن كثير : المصدر السابق : ج/٨ ، ص/٢٦٢ .

(٥٣) ابن خلكان : المصدر السابق : ج/٢ ، ص/٢١٨ .

(٥٤) الأصفهاني : المصدر السابق : ج/١٢ ، ص/٣٥٣-٣٥٤ .

(٥٥) ابن كثير : المصدر السابق : ج/٨ ، ص/٢٦٢ .

(٥٦) الجاحظ : المصدر السابق : ج/١ ، ص/٣٢٤ .

(٥٧) الأصفهاني : المصدر السابق : ج/١٢ ، ص/٣٦١ .

(٥٨) الطاعون الجارف : وقع الطاعون الجارف في أول سنة ٦٩هـ في خلافة عبد اللّه بن الزبير فأتى على أهلها إلا قليلاً منهم عجزوا عن نقل الموتى لكثرتهم ، سمي بالجارف لأن جرف الناس كالسيل وكان ثلاثة أيام فمات في كل يوم نحواً من سبعين ألفاً وأصبح الناس في الرابع ولم يبق إلا اليسير من الناس وصارت الوحوش تدخل البيوت فتصيب منهم ، روى أنه صعد ابن عامر يوم الجمعة المنبر وما في الجامع إلا سبعة رجال ونساء ، فقال : ما فعلت الوجوه ، فقيل : تحت التراب ، أيها الأمير ! (الذهبي : العبر في خبر من غبر ، التحقيق : أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول ، دار الكتب العلمية بيروت : ج/١ ، ص/٥٦) .

(٥٩) الذهبي : سير أعلام النبلاء : ج/٤ ، ص/٨٦ .، وقال عمر فروخ : كان له يوم مات خمس وسبعون سنة (عمر فروخ : المصدر السابق : ج/١ ، ص/٣٤٨) .

(٦٠) العسقلاني : الإصابة : ج/٣ ، ص/٣٠٥ .

(٦١) الأصفهاني : المصدر السابق : ج/١٢ ، ص/٣٨٦ .

(٦٢-٦٣) ابن خلكان : المصدر السابق : ج/٢ ، ص/٢١٨ .

أبو الأسود الدؤلي

و دوره في وضع قواعد النحو

بقلم : الشيخ أحمد علي
المحدث بالمدرسة الحكيمية العالية ، شوناتي ، لوهاغارا
شيتاغونغ . بنغلاديش

[٢/الأخيرة]

⭐ وضع النحو العربي و دور أبي الأسود فيه :

إن اللغة في معناها المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده وتلك العبارة هي فعل لساني فلابد أن تكون ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان ، وهو في كل أمة بحسب مصطلحاتهم (٨٤) فالنحو أيضاً بمعناه الحقيقي طبيعي على لسان كل متكلم يتعلمه من مرضعه لأن الإنسان يتعلم النحو ، وهو يتعلم النطق ، إذ لا يجيد بدونه التعبير عن مقاصده – أما إذا حاول أن يتعلم لغة غير لغته فيجب عليه أن يدرس مبادئ النحو فإنها تسهل عليه تناولها – ولذلك قد تقضى الأمة عدة قرون وهي تتحدث وتخطب وتقرض الشعر قبل أن ترسم مبادئ النحو .

فكانت العرب كقوم غيرهم تنظم الشعر وتلقى الخطب وتراسل قبل رسم قواعد النحو ، ونبغ فيهم جماعة من الشعراء والخطباء والأدباء ، وهم لم يتعلموا قواعد النحو فلم يضرهم ذلك شيئاً ، لأن ملكة اللغة كانت طبيعية فيهم بل كانت تلك الملكة فيهم أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني مثل الحركات التي تعين الفاعل من المفعول والمجرور ، ومثل الحروف التي تفضى بالافعال إلى الذوات من غير تكلف وليس يوجد ذلك إلا في لغة العرب ، وأما غيرها من اللغات فكل معنى أوحال لابدّ له من ألفاظ تخصه بالدلالة (٨٥) .

هذا ! إلى أنهم اضطروا إلى ضبط قواعد لغتهم وتدوينها بأسرع مما اضطر إليه أقوام أخرى ، التماساً للدقة في ضبط معاني القرآن الكريم فلم ينصرم نصف قرن على دولة الإسلام حتى شعروا بالحاجة إلى تدوين

النحو ، وغالب الظن أنهم نسجوا في تبويبه على منوال السريان لأن السريان دونوا نحوهم وألفوا فيه الكتب في أواسط القرن الخامس الميلادي - يبدو أن العرب لما خالطوا السريان في العراق اطلعوا على آدابهم وفي جملتها "النحو" فأعجبهم - فلما اضطروا إلى رسم قواعد النحو نسجوا على منواله لأن اللغتين شقيقتان ويؤيد ذلك أن العرب بدأوا بوضع النحو وهم في العراق بين السريان والكلدان وأقسام الكلام في العربية هي نفس أقسامه في السريانية (٨٦) .

أما استعجال العرب في تدوين النحو فإنه تابع لاستعجالهم في الفتح و نشر الدين لأنه لما انتشر الإسلام وخالط العرب مع العجم فسدت ألسنتهم ، وتغيرت تلك الملكة بما ألقي إليه السمع من المخالفات التي للمتعربين ، والسمع أبو الملكات اللسانية فأصبحوا يلحنون في كلامه ، وكانوا عند ظهور الإسلام يعربون كلامهم إعراباً صحيحاً ، ويقرأون كل ما يكتب قراءة صحيحة لا لحن فيها إلا من خالطهم منه من الموالي والمتعربين ، فإن هؤلاء كانوا حتى في حياة الرسول ﷺ يلحنون في كلامهم ، فقد روى أنه سمع رجلاً يلحن في كلامه فقال ﷺ : أرشدوا أخاكم فقد ضلّ (٨٧) ، وروى أيضاً أن أحد ولاة عمر بن الخطاب كتب إليه كتاباً به بعض اللحن فكتب إليه عمر ؓ : أن قنع كاتبك سوطاً (٨٨) غير أن اللحن في صدر الإسلام كان لا يزال قليلاً بل نادراً وكلما تقدم الزمن اتسع شيوعه على الألسنة ، وخاصة بعد تعرب الشعوب المغلوبة التي كانت تحتفظ ألسنتها بكثير من عاداتها اللغوية مما فسح للتحريف في عربيتهم التي كانوا ينطقون بها كما فسح للحن وشيوعه ، وبعد انتشار العرب في الآفاق فأخذت سلائقهم تضعف لبعدهم عن ينابيع اللغة الفصيحة حتى عند بلغائهم وخطبائهم المفوهين ، و كان كثيرون من أبنائهم ولدوا لأمهات أجنبيات أو أعجميات فكانوا يتأثرون بهن في نطقهن لبعض الحروف وفي تعبيرهن ببعض الأساليب الأعجمية (٨٩) فخشى أرباب العلوم منهم أن تفسد ملكة الإعراب رأساً ، ويطول العهد بها فينغلق القرآن والحديث على الفهوم ، فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكليات و القواعد يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشباه بالأشباه (٩٠) .

لما كان هذا العلم لم يظهر فجاءة بل أخذ في الظهور رويداً رويداً حتى يستوي على سوقه ، كان ذلك ملهاة لأن يختلط على الناس من نسبت إليه الخطوات الأولى في وضعه ، وفي ذلك يقول السيرافي : اختلف الناس في أول من رسم النحو ، فقال قائلون : أبو الأسود الدولي ، وقيل: هو نصر بن عاصم ، وقيل : بل هو عبيد الرحمن بن هُرمز والجمهور على أنه أبو الأسود الدولي (٩١) ، وأشار عليه في ذلك أمير المؤمنين علي ﷺ وعلمه قواعد عدة لأنه رأى تغير الملكة فأشار عليه بحفظها ، ففزع إلى ضبطها بالقوانين الحاضرة المستقرأة (٩٢) ، و قيل : أمره بذلك عمر ﷺ (٩٣) و كأنه تعلم لغة السريان أو اطلع على نحوها فرغب في النسج على منواله (٩٤) .

هناك روايات كثيرة تدل على أن أبا الأسود وضع النحو لكنها تختلف فيما بعثه على وضعه ، ومن أهمها :

١- روى أنه قدم أعرابي في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ فقال : من يقرونني شيئاً مما أنزل الله على محمد ﷺ ؟ فأقرأه رجل سورة براءة فقال : "إن الله بريئ من المشركين ورسوله" ، فقال الأعرابي : أو قد بريئ الله من رسوله ؟ إن يكن الله بريئ من رسوله ، فأنا أبرأ منه فبلغ عمر ﷺ مقالة الأعرابي فدعاه ، فقال له : يا أعرابي ! تبرأ من رسول الله ﷺ ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ! إني قدمت المدينة ، ولا علم لي بالقرآن ، فسألت من يقرونني ، فأقرأ في هذا سورة براءة ، فقال : إن الله بريئ من المشركين ورسوله ، فقلت : أوقد بريئ الله تعالى من رسوله ؟ إن يكن الله تعالى بريئ من رسوله ، فأنا أبرأ منه ، فقال عمر ﷺ له : ليس هكذا يا أعرابي ، فقال : كيف هي يا أمير المؤمنين ؟ فقال : إن الله بريئ من المشركين ورسوله ، فقال الأعرابي : وأنا والله أبرأ ممن بريئ الله ورسوله منهم ، فأمر عمر ﷺ أن لا يقرئ القرآن إلا عالم باللغة وأمر أبا الأسود الدولي أن يضع النحو (٩٥) .

٢- روى عن أبي الأسود أنه قال : دخلت على أمير المؤمنين علي ﷺ فرأيته مطرقاً ، فقلت : فيم تتفكر يا أمير المؤمنين ؟ قال : إني تأملت كلام الناس ، فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء (يعني الأعاجم) فأردت أن أضع لهم شيئاً يرجعون إليه ، ويعتمدون عليه ، فقلت : إن فعلت هذا أحييتنا ، فأتيته بعد أيام فألقي إليّ رقعة ، وفيها :

"الكلام كله اسم وفعل وحرف فالإسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى ، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل" ، ثم قال لي : أنح هذا النحو وأضف إليه ما وقع إليك ، واعلم ، يا أبا الأسود ! إن الأسماء ثلاثة : ظاهر ومضمر واسم لا ظاهر ولا مضمر ، وإنما يتفاضل الناس يا أبا الأسود ! فيما ليس بظاهر ولا مضمر ، وأراد بذلك الاسم المبهم .

ثم قال أبو الأسود : وضعت بابي العطف والنعت ، ثم بابي التعجب والاستفهام إلى أن وصلت إلى باب "إن وإخواتها" ما خلا "لكن" فلما عرضتها علي علي ﷺ أمرني بضم "لكن" إليها ، وكنت كلما وضعت باباً من أبواب النحو عرضته عليه إلى أن حصلت ما فيه الكفاية ، قال : "ما أحسن هذا النحو الذي قد نحوت" فلذلك سمى النحو (٩٦) .

٣- روى عن أبي الأسود أيضاً : إن ابنته نظرت إلى السماء في ليلة شديدة الصحو ، وقالت : ما أحسن السماء (بضم النون) ، فقال لها : نجومها ، فقالت : إني لم أرد هذا وإنما تعجبت من حسنها ، فقال لها : "كان عليك أن تقولي : ما أحسن السماء بالفتح ، وتفتحى فاك ، وذكر أبو الأسود ذلك لعلي - كرّم الله وجهه - فعلمه أبواباً من النحو ، منها : باب إن وباب الإضافة وباب الإمالة ، ثم قال : أنح هذا النحو يا أبا الأسود ! فاشتغل أبو الأسود بوضع أبواب أخرى في النحو زيادة على ما عرفه من علي ﷺ ، منها : باب العطف و باب النعت و باب التعجب و باب الاستفهام (٩٧) .

٤- روى عن يحيى بن يعمر العدواني أنه قال : أن أبا الأسود الدؤلي دخل إلى : ابنته بالبصرة ، فقالت له : يا أبتِ ما أشد الحرّ ! (رفعت أشد) فظنها تسأله وتستفهم منه ، أيّ زمان الحر أشد ؟ فقال لها : شهر ناجر(٩٨) ، فقالت : يا أبتِ إنما أخبرتك ، ولم أسألك ، فقال لها : قولي ما أشد (بفتح الدال) فأخبر بذلك عليا ﷺ فأعطاه أصولاً بني منها وعمل بعده عليها (٩٩) .

٥- روى عن أبي سعيد أن السبب الذي حدا أبا الأسود على ما رسمه من النحو هو أنه مرّ به سعد (١٠٠) ، وهو يقود فرسه فقال : ما لك يا سعد ! لم لا تركب ؟ قال : إن فرسي ضالع أراد ظالعاً ، قال : فضحك به بعض من حضره ، فقال أبو الأسود : هؤلاء الموالي قد رغبوا في الإسلام ،

ودخلوا فيه فصاروا لنا إخوة فلو عملنا لهم الكلام فوضع باب الفاعل والمفعول (١٠١) .

٦- روى عمر بن شبة بإسناد له عن عاصم بن بهدلة ، قال : أول من وضع النحو أبو الأسود ، استأذن زياداً - وهو أمير البصرة - في وضع شئ يعرف العرب به كلامهم ، وقال له : إن العرب خالطت العجم ففسدت ألسنتها فلم يأذن له حتى جاءه رجل يشكو إليه أمراً فسمعه يقول : أصلح الله الأمير توفى أبانا ، وترك بنون ، فاستنكف زياد من سماع ذلك اللحن وقال : ادع لي أبا الأسود ، فلما جاءه ، قال له : ضع للناس ما كنت نهيتك عنه ففعل (١٠٢) .

بالنظر إلى اضطراب الروايات فيمن وضع النحو أولاً وفي السبب الذي حدا أبا الأسود على ذلك حاول المستشرق "ركندورف - Reckendrof" في دائرة المعارف الإسلامية : [٣٠٧/١] ، والدكتور شوقي ضيف في "المدارس النحوية" : ص/١٤-١٦ ، وأحمد أمين في "ضحى الإسلام" : ص/٢٨٥-٢٨٦ وغيرهم من البحاثة المعاصرين نفي قول الجمهور بأن أبا الأسود واضع أصول النحو العربي ، وقالوا : إن هذه الروايات من صنع الشيعة الذين أرادوا أن ينسبوا كل شئ إلى علي ﵁ وأتباعه ، فكأنهم رأوا أن يضيفوا النحو إلى شيعي قديم ، فارتفع به بعضهم إلى علي ﵁ ، و وقف به آخرون عند أبي الأسود صاحبه الذي كان يتشيع له .

إن محاولتهم في رفض قول الجمهور اعتماداً على اضطراب الروايات فحسب لا تجدر بالقبول والتسليم لوجوه مختلفة ، وهي :

١- إن اضطراب الروايات في واضع هذا العلم بين علي ﵁ وأبي الأسود الدولي ليس اضطراباً في الحقيقة لأنه سبق فيما مضى أن بعض قواعد هذا العلم قد تلقى الدؤلي من علي ﵁ وبعضها قد اخترع من تلقاء نفسه ، فعلى ذلك تصح نسبة الوضع إلى كل واحد منهما ، لأنهما قد ساهما في وضعه ، وكذلك تصح نسبة الوضع إلى أبي الأسود وحده لأنه ألف قواعده ورتبها ودوّنها وإن كان علي ﵁ وضع أبواباً منه .

٢- وكذلك الاضطرابات في السبب لا تمنع تسليم أبي الأسود واضعه المبكر لأن هذا العلم بكل ما جمع من قواعده لم يضعه في حين واحد بل وضع قواعد متنوعة منه في أحيان مختلفة إثر الحاجات والضرورات وكان طبعياً أن يكون وراء وضع هذا العلم وقائع شتى ، وبيد ذلك أن

شيوع الخطأ على الألسنة يقتضي أن يكون وراء وضعه حوادث متنوعة . وما روى من إباء زياد في أول الأمر كان ذلك إذ عرض عليه الدؤلي ما وضعه من قواعد وطلب منه نشرها في الآفاق ، وما روى أن زياداً نفسه أو ابنه عبيد الله استأذنه في أن يضع للناس رسم العربية فأبي أبو الأسود ذلك في أول الأمر كان ذلك إذ طلب منه أن يضع شيئا يعرب به كتاب الله كما مضى فيما قبل .

٣- وإن سلمنا رأيهم فيجب علينا أن نرفض رأى كثير من العلماء المتقدمين الذين يوثق على أقوالهم فإنهم كانوا يرون أن أبا الأسود وهو أول من وضع النحو ، من أبرز هؤلاء العلماء الذين رأوا هذا الرأي أبو عبيدة وابن قتيبة والمبرد وابن حجر العسقلاني وابن الأثير وابن سلام الجمحي وابن خلدون وابن كثير والسيوطي وابن خلكان والحافظ الذهبي وغيرهم .

٤- يؤيد رأى الجمهور ما ذكره ابن النديم صاحب الفهرست مما شاهده بعينه في عرض كلامه عن خزانة كتب أطلعه عليها أحد جماعي الكتب .. فكان في جملة ما فيها قمطر كبير فيه نحو ٣٠٠/رطل جلود فلحاف وصكاك وقرطاس مصري و ورق صيني و ورق تهامي وجلود أدم و ورق خراساني ، وبينها أربعة أوراق ، قال : "أحسبها من ورق الصين هذه فيها كلام في الفاعل والمفعول من أبي الأسود ﷺ بخط يحيى ابن يعمر، وتحت هذا الخط بخط عتيق : هذا خط علان النحوي وتحته : هذا خط النضر بن شميل ، ثم لما مات هذا الرجل فقدنا القمطر" (١٠٣) .

يتضح مما ذكرت أن وضع علم النحو أو الشروع فيه على الأقل ثابت لأبي الأسودفلا معنى بالنظر إلى اضطرابات الروايات فقط لنفي قول الجمهور ، إذ نرى في كثير من الأمور المشروعة اضطرابات في أخبارها لفظاً وسنداً ، ومع ذلك نسلم شرعيتها بلا تردد وتأمل - و ههنا للاضطرابات جوابات صحيحة أيضاً - .

وأما زعم من زعم أن أول من وضع النحو عبد الرحمن بن هرمز ابن الأعرج فليس بصحيح لأنه أخذ هذا العلم عن أبي الأسود الدولي وكذلك زعم من زعم أن أول من وضعه نصر بن عاصم لأنه أخذ أيضاً عن الدؤلي ، ويقال عن ميمون الأقرن (١٠٤) .

أخذ النحو عن أبي الأسود الدؤلي جماعة ، منهم : يحيى بن يعمر ، وعنبسة بن معدان (١٠٥) ، وميمون الأقرن ، وعبد الرحمن بن هرمز ، وقيل : نصر بن عاصم (١٠٦) ، فنقله مَن جاء بعده من أئمة النحاة وفرعوه وأتموه ، و لم ينضج إلا في العصر العباسي ، و كان من له الفضل في ذلك البصريون ، ثم الكوفيون ، ثم البغداديون ، و البصرة أول مدينة عنيت بالنحو و تدوينه و اختراع القواعد له ، و قد سبقت بنحو مائة عام ، حتى أتت الكوفة بعدُ تؤسس مذهباً خاصاً يضاهى مذهب البصرة وينازعه ، ثم أتت بغداد تمزج بين النحويين البصريين والكوفيين.

***

الهوامش :

(٨٤-٨٥) ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد : "المقدمة" (د.ت) : ص/٤٥٤ .

(٨٦) زيدان : تاريخ اداب اللغة العربية" : ج/١ ، ص/٢١٩ .

(٨٧) علي الهندي ، المتقى بن حسام الدين : "كنز العمال" : ج/١، ص/١٥١، بيروت.

(٨٨) ابن جني ، أبو الفتح عثمان : "الخصائص" (د.ت) : ج/٢، ص/٨، دار الكتب المصرية ، القاهرة .

(٨٩) الجاحظ : "المصدر السابق" : ج/١ ، ص/٧٢ ، ج/٢ ، ص/٢١٠ .

(٩٠) ابن خلدون : "المصدر السابق" : ص/٤٥٤ .

(٩١) ضيف ، د/شوقي : "المدارس النحوية" : ص/١٣، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٣م .

(٩٢) ابن خلدون : "المصدر السابق" : ص/٤٥٤ .

(٩٣) ابن الأنباري ، كمال الدين عبد الرحمن : "نزهة الألباء في طبقات الأدباء" : ص/٢٠ ، مطبعة المعارف ، بغداد ١٩٥٩م .

(٩٤) زيدان : "المصدر السابق" : ج/١ ، ص/٢١٩ .

(٩٥) ابن الأنباري : "المصدر السابق" : ص/١٩-٢٠ .

(٩٦) المصدر السابق : ص/١٨-١٩ .

(٩٧) ابن كثير : "المصدر السابق" : ج/٨ ، ص/٢٦٢ .

(٩٨) شهر ناجر: يريد شهر صفر، الجاهلية كانت تسمى شهور السنة بهذه الأسماء .

(٩٩) الأصفهاني : "المصدر السابق" : ج/١٢ ، ص/٣٤٧ ، ابن حجر : "الاصابة" : ج/٣ ، ص/٣٠٤ ، الذهبي : "سير أعلام النبلاء" : ج/٤ ، ص/٨٣ .

(١٠٠) سعد : كان رجلاً فارسياً من أهل زندخان ، كان قدم البصرة مع جماعة أهله فدنوا من قدامة بن مظعون ، وادعوا أنهم أسلموا على يديه ، وإنهم بذلك من مواليه ، ابن النديم : "المصدر السابق" : ص/٤٠ .

(١٠١) ابن النديم : ص/٤٠ ، وابن حجر : "الإصابة" : ج/٣ ، ص/٣٠٤ .

(١٠٢) ابن حجر: "الإصابة" : ج/٣، ص/٣٠٤، زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية" : ج/١، ص/٢١٩.

(١٠٣) ابن النديم : "المصدر السابق" : ص/٤١.

(١٠٤) ابن الأنباري : "المصدر السابق" : ص/٢١ .

(١٠٥) وكان يقال له عنبسة الفيل .

(١٠٦) ابن الأنباري : "المصدر السابق" : ص/٢٢.